﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾ [آل عمران: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين إيمانهم الزّائف، ودعوتهم لتكذيب من خالف التّوراة

للآية مناسبة بما قبلها، ذلك أنّ المفسّرين اتّفقوا على أنَّ هذا بقيةَ كلام اليهود، وفيه وجهان: الأوَّل: ولا تصدِّقوا إلَّا نبيًّا يُقرِّر شرائعَ التَّوراة، فأمَّا من جاء بتغيير شيءٍ من أحكام التَّوراة فلا تصدِّقوه، وهذا هو مذهبُ اليهود إلى اليوم، والثَّاني: أنَّه ذُكِر قبل هذه الآية قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: 72]. ثُمَّ قال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: لا تأتوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دِينَكُم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤۡمِنُوٓاْ﴾: الإيمانُ: هُوَ مَصدَرُ آمَنَ يُؤْمِنُ إيمَانًا، فَهُوَ مُؤمِنٌ. واتَّفق أَهلُ العِلمِ مِنَ اللُّغَويّين وَغَيرِهِمْ، أَن الإيمانَ مَعنَاهُ التَّصديقُ[2]، وقوله ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾: أي لا تُقِرُّوا بتصديقٍ قلبيّ، وتثقوا بأحدٍ إذا لم يكن يهوديًّا أو نصرانيًّا[3]، "وهذا مبنيّ على أنّهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبيّ من العرب بألسنتهم، مكابرة وعنادًا للنّبيّ ﷺ لا اعتقادًا، وأنّهم كانوا لا يُصرّحون باعتقادهم المستكنّ في أنفسهم إلّا لمن آمنوا له من قومهم، لما هم عليه من المكر والمخادعة"[4].

2) ﴿تَبِعَ﴾: الاتِّباع: هُوَ التُّلُوُّ وَالقَفْوُ. يُقَالُ تَبِعْتُ فُلَانًا إِذَا تَلَوْتَهُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/259.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49، واسماعيل حقّي، روح البيان: 2/50.
(4) رضا، تفسير المنار: 3/276.

وَاتَّبَعْتَهُ. وَأَتْبَعْتُهُ إِذَا لَحِقْتَهُ[1]. و﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: أي اقْتَفَى مِلَّتكم وأَهلَ دِينكُم، أَوْ لا تُظهِروا إيمانَكم وجهَ النَّهار إلَّا لمن كان على دِينكم من قَبْلُ، فإنَّ رُجوعَهم أرجى وأَهمُّ[2].

3) ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: خِلَافُ الضَّلَالَةِ. وهو الرّشادُ والدَّلالةُ، يؤنَّث ويذكَّر. يقال: هَداهُ اللهُ للدِّين هدًى. وهَدَيْتُهُ الطّريق والبيت هِدايَةً، أي عرَّفْتُهُ[3]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، أَيْ: إِنَّ الْبَيَانَ الْحَقَّ بَيَانُ اللَّهِ[4].

4) ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾: الإيتَاءُ: الإعْطاءُ. آتَى يُؤَاتِي إِيتَاءً وآتاهُ إِيتاءً، أَي: أَعطاه. وَيُقَالُ: لِفُلَانٍ أَتْوٌ، أَي: عَطاءٌ. وآتاه الشَّيءَ، أَي: أَعطاه إِيَّاه[5]، وفي هذه الآية، بَيَّنَ أَنْ لَا يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ، عَلَى تَقْدِيرِ: (لَا)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النّساء: 176]، أي: لئلّا تضلُّوا"[6].

5) ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾: من الحجّة، وأصله من حجّ إذا قصد، لأن المتحاجّين كلّ واحد منهما يقصد غلبة الآخر[7]، والمحاجة وَجهُ الظَّفَر عند الخُصومة. والفِعل حاجَجْتُه فَحَجَجْتُه. واحتَجَجْتُ عليه بكذا. وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ. والحِجاج المصدر[8].

6) ﴿ٱلْفَضْلَ﴾: الفَضْلُ: الزِّيَادَةُ وَالخَيْرُ. وَالإِفضَالُ: الإِحسَانُ. وَرَجُلٌ مُفْضِلٌ. وَيُقَالُ: فَضَلَ الشَّيْءُ يَفْضُلُ، وَرُبَّمَا قَالُوا فَضِلَ يَفْضَلُ، وَهِيَ نَادِرَةٌ. وَأَمَّا الْمُتَفَضِّلُ فَالْمُدَّعِي لِلفَضْلِ عَلَى أَضرَابِهِ وَأَقرَانِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24][9]. ومعنى الفضل في الآية: الهداية والتَّوفيق.

7) ﴿وَٰسِعٌ﴾ الوُسْعُ: الغِنَى، وَاللهُ الوَاسِعُ أَي الغَنِيُّ. وَالوُسْعُ: الجِدَةُ وَالطَّاقَةُ. وَهُوَ يُنْفِقُ عَلَى قَدرِ وُسْعِهِ. وَقَالَ تَعَالَى فِي السَّعَةِ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطّلاق: 7][10]. و﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو سَعَةٍ يَتَفَضَّلُ على من يشاء، عَليمٌ بمن هو أهله[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (تبع).
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49.
(3) الجوهري، الصّحاح: (هدى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/403.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/403.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/169.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حج).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(11) القنوجي، فتح البيان: 2/267.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعـوة اليهود لمقاطعة الإسلام ونبذه

هذه الآية تتمَّةٌ لقولهم السَّابق في المكر والخَديعة؛ فقالوا أيضًا: ولا تُؤمنوا وتتَّبعوا إلَّا لمن كان تابعًا لِدينكُم، ثمَّ أمرَ الله رسولَه بالرَّد على أولئك الضَّالين؛ قُلْ أيُّها الرَّسولُ: إنَّ الهدى إلى الحقِّ هو هدى الله تعالى، لا ما أنتم عليه مِنْ تَكذيبٍ وعِنادٍ، مَخَافَةَ أن يُؤتَى أَحدٌ مِنَ الفَضل مِثل ما أُوتيتُم، أو مَخافة أن يُحاجُّوكم عِند ربِّكم إنْ أَقْرَرْتُم بما أُنزلَ عَليهم، وقُل لهم إنَّ الفَضل بيدِ الله يُؤتيه مَن يشاء مِن عِباده، لا يَقتصر فضله على أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ، والله واسعُ الفَضلِ عَليمٌ بِمَن يَستَحِقُّهُ[1]، يَسَعُ بعلمه وعطائه جميع مخلوقاته، ممّن يستحق فضله ونعمه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ إِيرَادِ النَّهْيِ بَعدَ الأَمرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

شِـــدَّةُ حِـقْـدِ الـيَـهـودِ عَـلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

في الآية السَّابقة أَمْرانِ مِنْ قَادَتهم في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ الآية، وهما دالَّانِ على المرادِ بمجموعِهِمَا، فأَمْرُوهُم بالإيمان نِفاقًا، ثمَّ التَّصريحِ بالكفرِ، وأمَّا بقاؤهم على دينِهم وتمسُّكهم به فلا يدلُّ عليه مجموع الأَمرين، ولذا انتقلوا من الأمر إلى النَّهي عن طريق الحصرِ والقصرِ، فقالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وفي هذا تصويرٌ واضحٌ للحِقد الدَّفين في قُلُوب اليهود وقادَتهم للقَضاء على الإسلام ورسولِ الإسلام.

تعليلُ النَّهي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

أَسَـاسُ عَـلَاقَـةِ الْيَهُودِ بِالرِّسَالَةِ الإلهيّةِ الْعَدَاءُ وَتَزْيِيفُ الْحَقَائِقِ

الكلامُ لطائفة من اليهود، قَصَدُوا به الاحتراس؛ لئلَّا يُفْهَمَ من قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أنَّه إيمان

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 59.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 59.

حقّ، فالمعنى: ولا تؤمنوا إيمانًا حقًّا إلَّا لمن تَبِعَ دينكم، فأمَّا محمَّدٌ فلا تُؤمنوا به؛ لأنَّه لم يتَّبع دينَكم، فهذا تعليلُ للنَّهي[1].

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ دُونَ (ولا تُصَدِّقُوا):

حَـيَـاةُ الْـيَـهُـودِ حَيَاةُ خَوْفٍ وَقَلَقٍ

اليهودُ يَشعرون دائمًا بالخَوفِ والقَلَقِ؛ فلا يَأمَنُون غيرهم، لذلك هم أوَّل من سَنَّ خُلُقَ النِّفاق، وذَكَرَ القُرآن الكريم صُوَرًا لذلك، منها ما هو مَذكُور في الآية السَّابقة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ الآية، وغيرها مِن الآيات، وهنا أكمَلوا هذه الصُّورة النِّفاقيَّة بوصيتهم لأتباعهم بألَّا يُؤمِنُوا ولَا يَأمَنُوا إلَّا لمن كان على دينهم، وهذا ظاهرٌ في اختيار الفعل ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ دون (وَلَا تُصَدِّقُوا)؛ إيماءً إلى أصلِ اشتقاق الفعل ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ مِن مَادة (أمِنَ) وهو ضِدّ الخَوف؛ فأفادَ ذلك أنَّهم في خَوفٍ ورُعب إلَّا لمن كان على شاكلتهم.

دِلَالَةُ تَضْمِينِ فِعْلِ الْإِيمَانِ مَعْنَى الْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

سَـعَـةُ دِلَالَاتِ الْـقُـرْآنِ الْـكَـرِيـمِ عَلَى الْمَعَانِي

(الإيمانُ) لا يتعدَّى إلى مفعولين فلا يجوز أيضًا أن يَتعَلَّقَ بجارَّيْنِ، وقد تعلَّق بالجارِّ المحذوف من قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ فلا يتعلَّق باللَّام من قوله: ﴿لِمَن﴾، إلَّا أن يُحمَل (الإيمان) على معنى الإقرار على جهةِ التَّضمين، فيتعلَّق بجارَّين، ويكون المعنى: ولا تقرُّوا بأنْ يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، إلّا لِمَن تبع دينكم؛ كما تقول: (أَقْرَرْتُ لِزيدٍ بأَلْف)، فتَكون اللَّامُ مُتعلِّقَةً بالمعنى، ولا تكون صِلَةً على حَدِّ ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: 72]، و﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43][2].

فيكون فعل الإيمانِ دالًّا على التَّصديقِ بالمطابقة، وعلى الأمن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/280.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 5/351.

بدلالة الإيماء إلى أصلِ الاشتقاقِ، وعلى الإقرارِ بقرينَةِ تعلُّقِهِ بحرْفَيْ جَرٍّ، وهذا من دقائقِ القرآن الكريم وسعةِ دلالاتِه على المعاني.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿لِمَن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

اتَّفق المُفسِّرون على أنَّ هذا الكلام بقيّة كلام اليهود، وفيه ووجهان:

حِقْدُ الْيَهُودِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَصَبِيَّتُهُمُ الْبَاطِلَةُ لِدِينِهِمْ

أحدهما: أنَّ المعنى: ولا تُصدِّقوا إلَّا نَبِيًّا يُقَرِّرُ شَرائع التَّوراة، فأمَّا مَن جاء بتغيير شيء من أحكام التَّوراة فلا تُصدِّقوه، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم، وعلى هذا التَّفسير تكون (اللَّام) في قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ صِلةً مؤكِّدةً، فإنَّه يُقال: صَدَّقتُ فلانًا، ولا يُقال: صَدَّقْتُ لِفُلانٍ، وكون هذه اللَّام صِلةً زائدةً جائزٌ، كقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النَّمل: 72]؛ والمعنى: رَدِفَكم، وأنشد ابن الأنباري على هذا:

ما كنتُ أَخدَعُ للخليلِ بِخُلَّةٍ***حتى يكونَ لِيَ الخليلُ خَدوعا

قال: أراد: ما كنت أَخدَعُ الخليلَ؛ فزاد اللَّام.

والآخرُ: أنَّه ذُكر قبل هذه الآية قوله: ﴿ءَامِنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾، ثُمَّ قال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أي: لا تأتُوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دينَكم[1].

وكلا المعنيين حقٌّ في ذاتِه لا تعارُضَ بينَهُمَا في المعنَى وإن اختلفَا في التَّخريج.

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ ﴿تَبِعَ﴾ دُونَ (اتَّبَعَ):

سَطْوَةُ الْقِيادة دَلِيلٌ على ضَعفِ الْأَتْبَاعِ

في اختيار لفظ (تَبِعَ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إشعارٌ بضعف الأَتْبَاعِ؛ لأنَّ الفعل (تَبِعَ) يحمل معنًى دقيقًا يُفضي إلى الانقياد والاستسلام للقيادة من غير إعمالِ عَقْلٍ وفِكْرٍ،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/351، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/259.

وهذا منهجٌ يتَّبعه رُؤساء اليهود لفرض سيطرتهم على أتباعهم، وفي اللُّغة يُقال: "تَبِعَهُ واتّبعه: قَفَا أثره، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالارتِسَام والائتِمارِ، ومنه التَّبيع؛ خُصَّ بِوَلَد البَقَر إذا تَبِع أمَّهُ"(1).

وعلى ذلك فهم يُريدون مِن أتباعهم التَّسليم والانقياد في كُلِّ خطواتهم، ولم يَقل: اتَّبَعَ؛ لأنّه على وَزن (افْتَعَلَ)، وهذه الصِّيغة تدلُّ على التَّكلُّف والمَشقّة، وهذا غير مُرادٍ لهم.

سِرُّ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿دِينَكُمْ﴾ دُونَ (شَرِيعَتَكُم):

زَعَمُ الْيَهُودِ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الدِّينُ لَا دِينَ غَيْرُهُ

لَمَّا كانت الشَّرائع مختلفةً والدِّينُ واحدٌ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»(2)؛ كان في تعبيرِ اليهود بالدِّين دون الشَّريعةِ تعريضٌ منهم بأنَّ المسلمينَ ليسوا على دينٍ ذي بالٍ؛ إذ الدِّين واحدٌ، وهو الذي هم عليه في زعمهم، وهذا منهم في غاية المكابرةِ والعِنادِ؛ لادِّعائهم أنَّ دينَهم أفضلُ دِينٍ؛ بل لا دِينَ غيرُه.

نُكْتَةُ إِضَافَةِ (دِين) إِلَى كَافِ الْخِطَابِ فِي: ﴿دِينَكُمْ﴾:

مِنْ طُرُقِ التَّؤسَاءِ فِي إِضْلَالِ الْخَلْقِ إِثَارَةُ عَوَاطِفِ الْأَتْبَاعِ

في إضافة الدِّين إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ استثارةٌ لِحَمِيَّتِهم تجاه دينهم؛ وهو سُلوكٌ ظاهرٌ في مواقف اليهود في إثارة عَواطف أتباعهم تجاه أيّ قضية، يُؤَيِّدُ ذلك ما ذكره الرَّازيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ الآية، فقد قال: "ولا تأتوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دِينَكُم؛ فإنَّ مَقصُود كُلّ واحدٍ حفظُ أتباعه وأشياعه على مُتابعته"(3).

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (تبع).
(2) البخاري، الحديث رقم: (3443).
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/307.

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

الـهُـدَى هُـوَ الطَّريق الذي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى، ومَا عَدَاهُ فَضَلالٌ وَرَدَى وهَلاكٌ

قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومتعلَّقِه، وهو من كلام الله تعالى، أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ أَن يقوله لهم؛ وهو كناية عن استبعاد حصول اهتدائهم، وأنَّ الله لم يوفِّقهم للاهتداء؛ فمحاولتُه هداية النَّاس لا يحصلُ منه المطلوبُ، إذَا لم يُقدِّره الله، فالقصر - بتعريف جزأي الجملةِ - حقيقي؛ لأنَّ ما لم يُقدِّره الله فهو صورة الهدى وليس بهُدًى، وهو مقابل قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾، و﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، إذ أرادوا صورة الإيمان، وما هو بإيمان، وفي هذا الجواب إظهار الاستغناء عن مُتابعتهم[1].

دِلَالَةُ اللَّام في ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

الْهِدَايَةُ تَشْمَلُ لُزُومَ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَجَمِيعَ تَفَاصِيلِهِ الدِّينِيَّةِ عِلْمًا وَعَمَلًا

في معنى الهُدَى، هنا قولان:

أَحدهما: ما أوتِيَه المؤمنون من التَّصديق برسول الله ﷺ.

والآخَر: التَّوفيق والدِّلالة إلى الخير حتَّى يُسلِمَ أو يثبتَ على الإسلام[2].

وكلاهما داخل في مسمَّى الهُدَى؛ فتُحمل اللَّامُ في ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ على معنَى العهدِ العلميِّ، وهو الهُدَى إلى الدِّين الحقِّ، ويدخل فيه الهدايةُ إلى أصل الدِّين، والهدايةُ إلى تفاصيلِه.

سِرُّ مَجِيءِ ﴿قُلْ﴾ فِي الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

عِنَايَةُ اللهِ تَعَالَى بِنَبِيِّهِ ﷺ

أثناءَ ذكر هذه المؤامرات اليهوديَّة مِن زُعماء اليهود أَمْرًا ونَهيًا لأتباعهم، مع استثارة عواطفهم، كُلّ ذلك من أجل القضاءِ على الإسلام ونبيِّه ﷺ؛ يخرج صوت النُّور لتبديد الظَّلام؛ حيثُ يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: (قُلْ لَهم إنَّ الهُدى هدى الله)، فالله تعالى يُسمِعُهُم صوتَ رَسولِه ﷺ الَّذي يُحاولون كَتْمَهُ وإخفاءَهُ، وفيه إيماءٌ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/641، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/281.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/217.

إلى كمال عِناية اللّه سبحانه بنبيِّهِ ﷺ، وتأكيدُ صدقِ نُبوَّته، وأنَّها باصطفاءٍ منَ اللّه تعالى له، وأنَّ كيدَهم لا ينفعُ.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

وَظِيفَةُ الشَّرَائِعِ الْإِلٰهِيَّة الْهِدَايَةُ

المكرُ والخِداعُ والكَيْدُ ليس من خصائص الشَّرائع الإلهيَّة، بل خصائصُها هدايةُ البَشَر، والعملُ على بيان أسبابه، أمَّا ما يفعلُه اليهودُ مِن المَكر والخَديعة والتَّلبيس؛ فليس من شأن الدِّين الصَّحيح الَّذي أنزلَه اللّه على مُوسى عليه السلام؛ لذا جاءَ القرآنُ بهذه الجُملة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضيَّةً بين قولهم: لا تُظهروا إيمانكم بأن يُؤتَى أحدٌ مثلما أُوتيتم إلَّا لأهل دينكم دون غيركم، والغَرضُ من ذَلك هو منعُ النَّاس من الهداية إلى العلم؛ فجاءت هذه الجُملة لتبيِّن لهم أنَّ الكَيْدَ والخديعةَ لا يمنعان هدايةَ اللّه تعالى لمن أراد هدايته؛ فهو صاحبُ الهداية وحده.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفظيّ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ:

دِقَّةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي مَوَاقِعِ الْكَلِمِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: 120].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: 71].

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

فأنتَ ترى أنَّه في الآيتين الأُولَيَيْنِ قدَّم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، وجاء بضميرِ الفَصْلِ، وفي الثَّالثة قدَّم ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، ولم يأتِ بضمير الفَصْلِ.

ولعلَّ السَّبب أنَّ الآيتين الأُولَيَيْنِ في أصل ما يَتَدَيَّنُ به النَّاسُ؛ فالآية الأُولَى في اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، والثَّانية في الشِّرك، فناسب الرَّد بتقديم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام، فكأنَّه قال لهم: إنَّ هدى الله – أي: الإسلام – هو الهُدَى الكاملُ الصَّحيحُ التَّامّ لهدايتكم وما أنتم عليه، فناسبَ تقديمُه، وحصْرُ الهداية عليه، قال الزَّمخشريّ: "يعني أنَّ هدى الله الَّذي هو الإسلام، هو الهدى بالحقِّ، والَّذي يصحُّ أن يُسمَّى هُدًى، وهو الهدى كُلُّه ليس وراءه هدًى، وما تدعون إلى اتِّباعه ما هو بهدًى، إنَّما هو هَوًى، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ [البقرة: 120]؛ أي: أقوالهم الَّتي هي أهواءٌ وبدعٌ"[1].

والإتيانُ بضمير الفَصل كان توكيدًا لهذا المعنى، وناسب هذا التَّوكيد والقَصر زيادة ﴿مِنَ﴾ [البقرة: 120] في الآية الأُولى، وزيادة اللَّام في ﴿لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام: 71] في الثَّانية؛ تقويةً لهذا المعنى.

أمَّا الآية الثَّالثة؛ فليست في الموازنة بين ما يَتَدَيَّنُ به النَّاس، وإنَّما هي ردٌّ على تصرُّفٍ ومكْرٍ سيِّئَيْنِ؛ إذ قالت طائفةٌ من أهلِ الكتاب آمنوا بما أُنزل على محمَّد وجهَ النَّهار واكفرُوا آخرَه، وقُولوا نحنُ آمنَّا به ظَنًّا بأنَّه حقٌّ، ولكن استبان لنا أنَّه باطلٌ، فرجعنا عنه إلى ديننا الَّذي هو الحقُّ، لعلَّهم يرجعون عن دينهم، فنزلت الآية رَدًّا على مكرهم وكيدهم وادِّعائهم الهدى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ الهدى أن يهديكم الله إلى الدِّين الصَّحيح وإلى الحقِّ، وليس الهدى أن تعلموا مثل هذا المكرِ والتَّبييت، فالهدى أن يشرحَ الله صدورَكم لقَبُول الحقِّ، ويفتح قلوبكم للخير، وليس الهدى ما تُبيِّتُون وما تنوُون، فناسب هذا أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، وهو ردٌّ على تصرّفهم وزعمهم، وتبيانٌ للهدى الصَّحيح، قال الزَّمخشريُّ في هذه الآية: "معناه أنَّ الهدى هدى الله، مَن شاء أن يلطف به حتَّى يُسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدُكم وحيلُكم وزيُّكُم تصديقكم عن المسلمين والمشركين"[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/183.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/374، والطيبي، فتوح الغيب: 4/143، والسامرائي، معاني النحو: 1/52.

تَوْجِيهُ القِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾:

تنوُّع القِرَاءاتِ القرآنيَّة يُكسِبُ التَّفسيرَ خُصُوبةً وثراءً في المعَاني

قرأ ابنُ كثير ﴿ءَأَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ بهمزتين على وجه الاستفهام[1]، والمراد بالاستفهام: الإنكار، أي: لا يُعطى أحدٌ مثل ما أعطيتم، وهو مُتَّصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾، ويكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ خبرًا اعتُرِضَ في وسط الكلام ولم يُغيِّر من المعنى شيئًا، وإذا حمل الكلام على هذا؛ كان قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ منَ الحكاية عَنِ اليهود، والمعنَى: لا تصدقوا أن يُعطى أحدٌ مِثلَ ما أُعطيتم.

وقرأ غيرُ ابنِ كثيرٍ بهمزةٍ واحدة على الخبر، والمعنَى: ولا تُؤمنوا إلَّا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يُعطى أحد مِثلَ ما أُعطيتم[2].

سِرُّ اخْتِيَارِ ﴿أَحَدٌ﴾ دُونَ (واحِد) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾:

حِـرْصُ الْيَـهُـودِ عَلَى إِخْفَاءِ الْحَقِّ عَنِ الْخَلْقِ

يَحرصُ اليهود دائمًا على ادِّعاءِ التَّفوُّق على بقيَّة النَّاس، وأنَّهم أفضَل من غيرهم؛ لذلك زرعوا في أتباعهم أنَّه لا يُؤتى أحدٌ مِن البَشَر ولا أُمَّة من الأُمم مثل ما أُوتوا مِن النُّبوة والاصطفاء؛ ويظهر ذلك في اختيار لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ دون (وَاحِد)؛ لأنَّ لفظ (واحد) اسم لِمُفتتح العدد، ويأتي بعده اثنان وثلاثةٌ... وهكذا؛ أمَّا ﴿أَحَدٌ﴾ فينقطع معه العدد، فلا يأتي بعده عدد آخر، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّهم يرون أنَّ الاصطفاءَ والتَّكريم لهم لا لغيرهم، حتّى يسهُلَ عليهم سَلْبُ اعتقادِ وجود النُّبوَّة في غير بني إسرائيل.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾:

مِنَ السُّلوكيَّات المعروفة لدى اليهود أنَّهم لا يُقرُّون بالحقِّ، ولا يعترفون به؛ بل يجحدُونه بالكتمان، كما وردَ ذلك في آياتٍ كثيرة،

(1) ابن الجزري، النشر: 1/366.

(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 165 - 166.

فرؤساؤُهم يعملونَ على تعليم أتباعهم هذا المسلَك - في أمرٍ نبَّه عليه نبيُّنا ﷺ - بألَّا يقرّوا أو يعترفوا بالبشارات الدَّالة في كتبهم على نُبوَّته ﷺ خوفًا من إقامة الحُجَّة عليهم بما هو موجود في كُتبهم، وعبَّر القُرآن عن ذلك بقوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾، ومعلومٌ أنَّ أقوى الأَدِلَّة في إثبات أي قضية: الإقرار من الخَصم أو مِن كُتبه.

خَوْفُ الْيَهُودِ مِن إِقَـامَـةِ الـحُـجَّـةِ عَلَيْهِمْ

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾:

﴿عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ من قول الله تعالى: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ يَحتَمِلُ في معناهُ وجهين:

شَرَفُ الِانْتِسَابِ إِلَى الرَّبِّ ﷻ

أحدهما: أنَّ ذلك في الآخرة.

والآخرُ: عند كُتبِ ربِّكم الشَّاهدة عليكم ولكم.

إضافةُ ذَلك إلى الرَّب يُرادُ به التَّشريفُ والتَّفخيمُ، والمعنى: أو يحاجّوكم عند الحقِّ.

وعلى هذين المعنيين تدورُ تفاسير الآية، فيحمل كلّ منها على ما يناسب من هذين المعنيين[1].

فَائِدَةُ تَخْصِيصِ الْفَضْلِ بِاللهِ تَعَالَى، وَدِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾:

الْـفَـضَـائِـلُ وَالْـعَـطَـايَـا بِيَدِ الـلَّـهِ تَـعَـالَى يُؤْتِيهَا مَنْ يَشَاءُ

جيءَ بقول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ توكيدًا لمعنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك تكذيبٌ لِلْيَهُودِ حيث قالوا: شَريعةُ موسى مُؤَبَّدة، ولن يُؤتيَ اللهُ أحدًا مثل ما أُوتي بنو إسرائيل مِنَ النُّبوة، فالفَضل هو بيد الله تعالى يعطيه من أراد، فاختصاصُه بالفضل من شاء، إنَّما سببه الإرادة حسبما تقتضيه حكمتُهُ سبحانه.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/217.

وقد فُسِّر الفَضلُ هنا بالنُّبوة، وهو تفسيرٌ بأشرف أفراده[1]، وإلَّا فإنَّ الأظهرَ أن تكون اللَّامُ في ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ لاستغراق الجِنْسِ، فتشمَلُ كلَّ فضلٍ.

عِلَّةُ التَّوكِيدِ بِـ ﴿إِنَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾

لَا تُعْطَى الْفَضَائِلُ بِحَسَبِ أَهْوَاءِ النَّاسِ وَرَغَبَاتِهِمْ

تأكيدُ الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ جيء بها لتنزيلهم مَنزِلةَ مَن يُنكر أنَّ الفَضل بيد الله، ومن يتوهَّمُ أنَّ الفَضلَ تَبَعٌ لشهواتهم.

وجملة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ معطوفةٌ على جُملة ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، أي: أنَّ الفضل بيد الله وهو لا يخفى عليه من هو أهلٌ لِنَوَال فَضلِه[2].

دِلَالَةُ التَّأكِيدِ بِجُمْلَةِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

لَا حَجْرَ عَلَى فَضْلِ اللهِ تَعَالَى

ما يَفعَلُه اليهود مِن الكِتمان والخِداع هدفُه ألَّا يُعطى أحدٌ مثل ما أُوتوا، ويكون الفَضل مقصورًا عليهم، ولا يكون في غيرهم، وهم بذلك يُسيئون الأدَبَ مع الله تعالى؛ لذا جاءَ الرَّد مِن الله على لسان رسوله - ﷺ -: قُلْ لهم قولًا يحمل كلَّ تأكيدٍ دفعًا لجحودهم، وإنكارهم: إنَّ الفَضل بيده سبحانه لا ينازعه أحدٌ؛ فيُؤتي النُّبوَّة مَن شاء.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

تَفْضِيلُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ

الفَضْلُ يحمل معنى الزِّيادة في العَطاء، وفي ذلك إشارةٌ إلى زيادة الفَضْلِ لهذه الأُمَّة على سائر الأُمم، وذلك من وجوه:

أحدها: أنَّ هذا الدِّين هو الدِّين الخاتم، ورسولُه الرُّسول الخاتم ﷺ.

(1) المصدر نفسه: 3/218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/283.

ثانيها: هيمنةُ هذا الدِّين على كُلِّ ما سبقه.

ثالثها: عالَميَّتُه لِكُلِّ البَشَر، بخلاف ما سبقه فهو مخصُوصٌ بالقوم الَّذين أُرسل إليهم الرَّسول؛ أمَّا رسولنا ﷺ فهو رسولٌ للعالمين.

لذلك كان التَّعبير بـ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ الَّذي يحمل الزِّيادة في كُلِّ شيء ردًّا على مكر اليهود، ودعواهم أنَّهم أصحاب الرِّسالات فقط دُون غيرهم، وكأنَّهم أوقفوا عطاء السَّماء عندهم؛ لكنَّ ردَّ القرآن عليهم بأنَّ عطاءَ الله تعالى مُتجدِّدٌ ولا يوقفه أحدٌ؛ دلَّ على ذلك الفعل المضارع ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ الَّذي يُفيد تجدّدَ حدوث العَطاء، وهذا ظاهرٌ في اصطفاء الله تعالى لهذه الأُمَّة ولرَسُولِها ولكتابه.

مُناسبةُ الْفَاصِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لِلسِّياقِ:

إِثْبَاتُ الأَسْمَاءِ للهِ تَعَالَى دَالٌّ عَلَى ثُبُوتِ الاِسْمِ، وَالصِّفَةِ التِي تَضَمَّنَهَا الاِسْمُ، وَثُبُوتِ حُكْمِهَا وَمُقْتَضَاهَا.

خُتِمَت الآيةُ بقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، وجِيءَ بهذه الصِّفاتِ تَنبيهًا على أنَّه إذا كان واسعًا وعالمًا؛ فإنَّ ذلك يقتضي أن يُوسِّع على عباده، وعِلمُه يقتضي ألَّا يحرمَ رحمتَه مستحقّها، وفضلُه يقتضي أن يتجاوز العدلَ إلى الفضل، وهو أن يفضلَ على غير مُستحقِّيه، وإلَّا لم يكن فضلٌ عظيمٌ[1]، قال ابنُ عاشور: "وأحسبُ أنَّ وصفَ الله بصِفة ﴿وَٰسِعٌ﴾ في العربيَّة مِنْ مُبتكراتِ القُرآن"[2].

❁ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

النَّاظر في أغلب كتبِ اللُّغة والتَّفسير يجد أنّ أصحابَها لا يفرّقون بينهما، ولكنّ بلاغة القرآن تقتضي التَّفريقَ بينهما، وذلك من عدّة وجوهٍ: أوّلها: أنّ المادَّة اللُّغويّة لمادّة (أَمِنَ) تدورُ حول طمأنينة النَّفس، وزوال الخوفِ، ومنه الأمان الَّذي يُطلق على الحالة الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ في الأَمْن، ويُطلق على ما يُؤتمن عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/649.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/284، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1277.

[الأنفال: 27] الآية[1]، وأمَّا المادَّة اللُّغويَّة للصِّدق فتدورُ حول مُطابقةِ القول الضَّميرَ، والمُخبَرَ عنه معًا[2].

ثانيًا: التَّصديقُ أعمُّ من الإيمان؛ لأنَّ التَّصديق يدخلُ في الأمور الدُّنيويَّة والغَيبيَّة، بخلاف الإيمان فإنَّه يُطلَق على الشَّريعة الَّتي جاء بها نبيُّنا ﷺ، وعلى كلِّ مَن دخل شريعتَه مُقرًّا بالله ورسوله؛ فيقال له: مُؤمن، كما يُقال لكلِّ واحدٍ من الاعتقاد والقول الصِّدق والعمل الصَّالح: إيمان، وهذا من الشَّريعة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ الآية، أي: صلاتَكم.

ثالثًا: الإيمانُ يُقابِلُه الكُفْرُ، والتَّصديق يُقابله التَّكذيب.

رابعًا: الإيمانُ لا يُستعمل إلَّا في الإخبار عَن الغَيبيَّات، وهذا واضحٌ في كثير من الآيات، ومنها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3] الآية؛ بخلاف الصِّدق فيقال في المُشَاهَد، لذلك يقول للشُّهود: صدّقناهم، ولا يُقال: أَمَّنَّا لهم.

وخلاصةُ القَول: إنَّ الاستعمال القُرآنيّ لكلمتي الإيمان والتَّصديق يجعلهما مُتقاربين لا مُترادفين؛ حيثُ يشتركان في معنًى عامّ هو التَّصديق؛ بينما الإيمان يختصُّ بالغيب دون المُشَاهَدة، وأيضًا يختصُّ بزوال الخَوف، وفيه زيادة على الصِّدق بالمُوالاة والانقياد.

الدِّين والملَّة:

يقول الرَّاغب: المِلَّة كالدِّين، وهو اسمٌ لما شَرَّع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصَّلوا به إلى جوار الله، والفَرقُ بينها وبين الدِّين أنَّ المِلَّة لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبي الَّذي تُسند إليه، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحجّ: 78]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يوسف: 38] الآية، ولا تُضاف إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمَّة النَّبيِّ، ولا تُستعمل إلَّا في جُملة الشَّرائع دون آحادها؛ فلا يُقال مِلَّة الله، ولا يقال مِلَّتي، ومِلَّة زيد أمَّا الدِّين إذا أُطلق فهو الطَّاعة العامَّة الَّتي يُجازى عليها بالثَّواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]؛ أمَّا إذا قُيِّد فتختلف دلالتُه حسب السِّياق الَّذي ورد فيه مثل: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4]، فهو بمعنى الجزاءِ والحِساب.

(1) الرَّاغب، المفردات: (أمن).
(2) المصدر نفسه: (صدق).

الإيتاء والإعطاء:

والإيتاء: أقوى من الإعطَاء؛ إذْ لا مُطَاوع لَهُ، يُقَال: آتَاني فَأَخذته، وَفِي الإعطَاء يُقَال: أَعْطَاني فعطوت؛ وَمَا لَهُ مُطَاوع أَضعَف في إثْبَات مَفعُوله مِمَّا لَا مُطَاوع لَهُ، وَلِأَنَّ الإيتاء في أَكثر مَوَاضِع القُرْآن فِيمَا لَهُ ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمة والسَّبع المثاني، وَالملك الَّذِي لا يُؤْتى إِلَّا لذِي قُوَّة[1]، والإعطاءُ: قد يكونُ للشَّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]، وأيضًا لم يَرِد العَطاءُ دالًّا على الشَّيء الكثير إلَّا مُقيَّدًا بما يدلُّ على الكَثرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: 20]، الآية؛ فإضافة العَطاءِ إلى اللّه، ونفي الحَظر عنه، يفيدُ كَثرةَ هذا العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]، ومن الفُروق أيضًا أنَّ الإعطاء يتوقَّف على القبول، بينما الإيتاء لا يتوقَّف على القبول؛ لذلك أُمِرَ المسلمون بإيتاء الزَّكاة في كثيرٍ من آياتِ القُرآن، وأيضًا أنّ الإيتاءَ يكونُ عَن طيب قَلْبٍ، بخلاف الإعطاء فقد يكونُ عن كُرهٍ؛ ولذلك آثر القرآنُ في إخراج الزَّكاة التَّعبيرَ بالإيتاء؛ لأنَّ المؤمن يُخرج الزَّكاة عن طِيبِ نَفسٍ، بينما إعطاءُ الجزية لا يحمل هذا المعنى؛ لأنَّ الذِّمِّي لا يعطي الجزيةَ راضيًا.

وَاحِد، وأَحَد:

(وَاحِد): اسم لمُفتَتح العَدَد، ويأتي بعده اثنان وثلاثة؛ أمَّا (أَحد) فينقطع معه العَدَد فلا يأتي بعده عددٌ؛ إذًا هو نفي لما يُذكر معه مِن العَدد؛ ولذلك لا يُوصف بالأحدية إلَّا اللّه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: 1]، " وَفِي (أحد) فَائِدَة لَيست فِي وَاحِد، لِأَنَّك إِذا قلت: (لَا يقوم لزيد وَاحِد)، جَازَ أَن يقوم لَهُ اثْنَان وأكثر، وإذا قلت: (لَا يقوم لَهُ أحد) نفيتَ الْكلّ، وَهَذَا إِنَّمَا يكون فِي النَّفْي خَاصَّة، وَأَمَّا فِي الإيجاب فَلَا يكون فِيهِ ذَلِك الْمَعْنى، و(أحد) إِذا كَانَ بِمَعْنى وَاحِد وَقع فِي الإيجاب تَقول: (مَرَّ بنَا أَحَدٌ)[2].

المُحاجَّة والمُجادَلَة والحِوار:

وهذا يقتضي ذِكر معنى كُلّ منهم حتَّى يتبيَّن لنا الفَرق: (فَالمحاجَّة): أن يطلبَ كلٌّ

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.

واحدٍ منهما أن يردَّ الآخر عن حُجَّته ومَحجَّته[1]، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ [الأنعام: 80]، ويقول الجرجانيّ: "الحُجَّة ما دلَّ به على صِحَّة الدَّعوى"[2]؛ أمَّا الجِدال فهو دَفعُ المرءِ خصمَه عن إفساد قَوله بحُجَّة أو شُبهَة، أو يقصدُ به تصحيح كلامه، وهو بذلك يُشير إلى الخُصومة، وقال الرَّاغب: "والجِدال: المفاوضةُ على سبيل المُنازعة والمُغالبة، وأصلُه من جَدلتُ الحبل: أحكمتُ فَتلَهُ، وسُمِّي بذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتجادلين يفتلُ الآخرَ عن رأيه"[3]، ومن خلال النَّظر في الاستخدام القرآنيّ لهذين اللَّفظين، تجدُ فوارقَ دقيقةً بينهما، مع اشتراكهما في معنًى عامّ، هو مُراجعة الكلام، ولكن لكلِّ لفظٍ ما يُميّزه، فالجدال يَقومُ على المُغالبة؛ فكلٌّ من المتجادلين يَبذلُ جُهدَه ليغلب الآخر، ولذلك يقول الحكيم التّرمذي: "المُجَادلة: المُكاسرة، والجدل: الكسرُ؛ وذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتجادلين يريد كَسْرَ حُجَّة صاحبه، ليقهره لما يريد".

والمجادلةُ في القُرآن على نوعين: جدلٌ مذمُوم، وهو ما يجُرُّ إلى المُغَاضبة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وجدل محمودٌ: وهو مُراجعة الكلام بِهَدفِ الإقناع والوصُول إلى الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النّحل: 125]، إذن المُجادلة تتميَّز بالشِّدة والقَصد إلى غَلبَةِ الخَصم وقَهره؛ أمَّا المُحاجَّة فتقومُ على محاولة كلّ واحدٍ التَّغلب على خصمه، بما يقدِّمه من الحُجج والبراهين لنُصرة رأيه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: 80]، ومنه قوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 73]؛ وبذلك تتميَّز المُحاجَّة بتقديم الحُجج والبراهين بعيدًا عن التَّصلُّب والتَّعصُّب؛ وممَّا يتناسبُ ذِكره في هذا المقام (المحاوَرة)؛ لأنَّها تَقوم على مُراجعة الكلام أيضًا، لكنَّها بعيدة عن الشِّدَّة والخُصومة[4] وبذلك يتَّضح للقارئ الكريم دِقَّة النّظم القرآنيّ في أداء المعنى المُراد[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (حج).
(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 82.
(3) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(4) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(5) وممَّا يُؤكِّد ذلك ما ورد في سورة الكهف، في قِصَّة أصحاب الجنَّتين من جوار بينهما صوّره القُرآن بقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: 34]، وكان الرَّدُّ مِن صاحبه محاورًا بقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ [الكهف: 37] الآية، وفهذا من باب النَّصيحةِ له، وهي لا تحملُ شِدَّة ولا خُصُومة.

الجِدَال والحِجَاج:

الفَرْقُ بينهما أنَّ المطلوب بالحِجَاج هو ظهور الحُجَّة، والمطلوب بالجدال: الرُّجوع عن المذهب، فإنَّ أَصلَهُ من الجَدَلِ، وهو شِدَّة الفَتلِ، ومنه الأجدل لشِدَّة قُوَّتِهِ من بين الجوارح، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: 125]؛ وذلك أن دأبَ الأنبياءِ - عليهم السلام - كان رَدعَ القَوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله ببذل القُوَّة والاجتهاد في إيراد الأدلّة والحُجج. هذا وقد يرادُ بالجدال مُطلقُ المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 109][1].

الفضل والإحسان:

إنَّ الإحسَانَ قد يكون وَاجِبًا وَغير وَاجِب، وَالفضلُ لا يكونُ وَاجِبًا على أحدٍ، وَإِنَّمَا هُو مَا يتفضَّل بِهِ من غير سَبَبٍ يُوجِبهُ[2]، واللّه تعالى يمنح العفو والمغفرة لعباده المؤمنين في الآخرة، فإن فاتتهم الشّفاعات والكفّارات، وفاتهم محض الفضل والإحسان، عُذّبوا على قدر خطيئاتهم، ثمّ أُخرجوا من النّار، وأُدخلوا الجنّة"[3].

الجَواد والوَاسِع:

إنَّ الوَاسِعَ مُبالغَةٌ في الوَصف بالجُود، وَالشَّاهد أَنَّه نقيض قَوْلهم للبخيل: ضَيِّقٌ مُبالغَةً في الوَصْف بالبخل، وَهَذَا في أَوصَاف الحقِّ مجَازٌ؛ لِأَنَّ المُرَاد أَنَّ عطاءه كثيرٌ، وَقَالَ بَعضهم: هُوَ في صِفَات اللّه تَعَالَى بِمَعْنى أَنّه المُحِيط بالأشياء عِلمًا من قَوله تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ٩٨﴾ [طه: 98]، فهو "الجواد الواسع الفضل، الجزيل العطاء الّذي ما من شيء إلّا عنده خزائنه، وما من نعمة بخلقه فمنه وحده، لا شريك له"[4]، وله وَجهٌ آخرُ في اللُّغة، وهُو أَن يكون مأخوذًا من الوُسع، وهو قدر مَا تسع لَهُ القُوَّة، وَهُوَ بِمَنزِلَة الطَّاقَة، وَهُو نِهَايَة مَقدُور القَادِر، فَلَا يَصحُّ ذَلِك في اللّه تَعَالَى[5].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 194.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/220 (بتصرّف).
(4) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 6/251.
(5) المصدر نفسه، ص: 174.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»